جباية الشام

في الاسلام

٢

وكذلك كانت سيرة العباسيين بعد فقد اخذ المنصور اموال الناس حتى ماترك عند احد فضلاً وكان مبلغ ما اخذلهم ثمانمائة الف الف درهم وعدل ابو جعفر المنصور ارض الغوطة غوطة دمشق فجعل كل ثلاثين مداً بدينار بالقاسمي وكان اداء الناس على ذلك . وكان الخلفاء من بني العباس يعمدون الى ابطال الرسوم عندما يتجلى لهم ضررها ولا يقطعون امراً بدون اخذ آراء جلة الفقهاء في عصرهم فقد امر المعتضد سنة ٢٨٣ بالكتابة الى جميع البلدان ان يرد الفاضل من سهام المواريث الى ذوي الارحام وابطل ديوان المواريث . وخلف المعتضد هذا في بيوت الاموال تسعة آلاف الف دينار ومن الورق الف الف درهم. ومن خلف هذه القناطير المقنطرة من الذهب لا بد له ان يظلم امته وان لا يصرف اموالها في وجوه مصالحها وقد كنت ترى في أيام العباسيين عدلاً شاملاً لا مثيل له حيناً وتجد ظلماً شائناً في دور آخر فعهد الرشيد والمأمون والمهدي والظاهر والمتوكل كان عجباً في العدل وانتظام الجباية فالمهدي مثلاً افتتح امره بالنظر في المظالم وبسط يده في العطاء فاذهب جميع ماخلفه المنصور وهو ستمائة الف الف درهم واربعة عشر الف الف دينار سوى ما جباه في ايامه والمأمون العباسي اقام سنة بدمشق (٢١٤) لمساحة اراضي الشام واجتلب لتعديله مساح العراق والاهواز والري والمهدي اول من نقل الخراج الى المقاسمة[1] وكان السلطان يأخذ عن الغلات خراجاً مقرراً ولا يقاسم وجعل الخراج على النخل والشجر . واعاد الظاهر بامر الله سنة ٦٢٢ سيرة العمرين قال ابن الاثير فلو قيل انه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقاً فانه عاد من الاموال المغصوبة في ايام ابيه شيئاً كثيراً واطلق المكوس في البلاد جميعها وامر باعادة الخراج القديم وان يسقط جميع ما جدده ابوه وكان كثيراً لا يحصى وفي ايام ابيه

(١) تاريخ الوزراء للصابي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

خربت العراق وتفرق اهله في البلاد .

خربت العراق وما اليها من الامصار والاقطار للشدة في تقاضي الجباية والتفنن في الضرائب وعدم اطرادها على وتيرة واحدة . كتب[1] علي بن عيسى الى عامل ديار ربيعة وقد ورد الحضرة قوم من اهلها يتظلمون من حيف لحقهم في معاملاتهم: «بسم الله الرحمن الرحيم. في علمك اكرمك الله بما امر الله به من العدل والاحسان ونهى عنه من الجور والعدوان وعاقب به الظالمين في سالف الازمان غنى لك عن التنبيه والتوقيف والوعظ والتخويف وفيما رسمته لك مشافهة ومكاتبة في انكار الظلم وازالته واظهار العدل وافاضته كفاية وبلاغ. وقد ورد الحضرة اكرمك الله جماعة من وجوه التناء والمزارعين بديار ربيعة متظلمين مما عوملوا به في سني ثلث عشرة وثلثمائة من اكراههم على تضمين غلات بيادرهم بالحزر والتقدير والزامهم حق الاعشار في ضياعهم على التربيع واستخراج الخراج منهم على اوفر عبرة قبل ادراك غلاتهم وثمارهم واكراه وجوههم وتجارهم على ابتياع الغلات السلطانية باسعار مسرفة مجحفة فاقلقني ما افضوا فيه من الشكوى وآلمني ما انتهوا الى وضعه من عظيم البلوى ووجدته مع قبح ذكره وعظيم وزره عائداً بخراب الضياع ونقصان الارتفاع فينبغي اكرمك الله ان تجري سائر رعيتك على المعاملات القديمة وتحملهم على الرسوم السليمة حتى يعودوا الى افضل حال عهدوها واجمل سيرة حمدوها وتزيل السنن الجائرة وتبطلها وتقطع اسبابها وتحسمها وتكتب الي بما يكون منك في ذلك فانني على اهتمام به ومراعاة له ان شاء الله » .

ولو رجعت الى كتب التاريخ والسير لرأيت شيئاً كثيراً من هذا القبيل وفي الكتاب الذي كتبه الامام ابو يوسف صاحب الامام ابي حنيفة الى الخليفة هرون الرشيد صورة لطيفة من تلطف العلماء في نصح الملوك والخلفاء . وكتابه دستور في الجباية تستدل به على ترقي العقول في عصره . وما خلا عصر من علماء ينعون على العمال اعمالهم وتجانفهم عن طرق الحق في معاملة الامة وقلما كانت المواعظ تفعل الا في المستعدين للخير من الخلفاء فمن دونهم. ذكروا ان الرشيد اخذ العمال[2] والتناء والدهاقين واصحاب الضياع والمبتاعين للغلات والمقبلين وكان عليهم اموال مجتمعة

(١) تاريخ الوزراء للصابي . (٢) تاريخ اليعقوبي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فطولبوا بصنوف من العذاب فرأى الفضل بن عياض الناس يعذبون في الخراج فقال ارفعوا عنهم اني سمعت رسول الله يقول من عذب الناس في الدنيا عذبه الله يوم القيامة فامر الرشيد بان يرفع العذاب عن الناس فارتفع العذاب من تلك السنة . وكان وقع مثل ذلك في اوائل دولة الامويين بالشام واخذ جباة الجزية يعذبون بعض اهل الذمة ويجعلونهم في الشمس ساعات عقوبة لهم فنهى عن ذلك احد الفقهاء العارفين وبطل تعذيب المكلفين من ذاك اليوم .

زاد الاجحاف بحقوق الرعية لما توزع ملوك الطوائف البلاد واخذ كل مليك او امير يستولي على اقليم صغير من الارض ويجنف على الناس في الجباية ويسمي نفسه ملكاً من ذلك بنو حمدان[1] في حلب وما اليها فانهم كانوا على جانب من البطش والظلم وان مدحهم الشعراء وقامت للادب في ايامهم دولة فقد جاروا في الظلم والاستئثار بالاموال وكانت فتنهم مع الروم لا تنقطع فاستأثر القضاء بهلاك العباد وخراب البلاد على ايدي المدافعين والمهاجمين . ففي خلافة الراضي سنة ٣٢٤ بطلت الدواوين والوزارة فكان كل من تولى امرة الامراء[2] تحمل اليه الاموال فيتصرف فيها جميعاً كما يريد ويطلق للخليفة مايريد وبطلت بيوت الاموال وكانت الشام اذ ذاك في يد محمد بن طغج . وبينما كانت الشام تدافع القرامطة وتشتغل بفتن بني حمدان لتقع في ايدي الاخشيدية اصحاب مصر كانت بغداد في شغب وتعب واذ كانت هي العاصمة فاحر بالاطراف ان تكون اسوأ حالاً فقد شغب الجند سنة ٣٣٤ على معز الدولة ابن بويه فضمن لهم ايصال ارزاقهم في مدة ذكرها لهم فاضطر الى ضبط الناس واخذ الاموال من غير وجوهها واقطع قواده واصحاب القرى جميعها التي للسلطان واصحاب الاملاك فبطل لذلك اكثر الدواوين وزالت ايدي العمال وكانت البلاد قد خربت من الاختلاف والغلاء والنهب فاخذ القواد القرى العامرة وزادت عمارتها معهم وتوفر دخلها بسبب الجاه فلم يمكن معز الدولة العود عليهم بذلك واما الاتباع فان الذي اخذوه ازداد خراباً فردوه وطلبوا العوض عنه فعوضوا وترك الاجتهاد والاهتمام بمسارب القرى وتسوية طرقها فهلكت وبطل الكثير منها واخذ غلمان المقطعين في ظلم الفلاح وتحصيل العاجل فكان احدهم اذا عجز الحاصل تممه بمصادرة القائمين على الاراضي .

(١) المسالك والممالك لابن حوقل (٢) الكامل لابن الاثير .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهكذا اختلت احوال المملكة العربية وطرق الجباية فيها لما نال الناس من المغارم والمظالم والحكومات لا تعرف واجبها ولا تدري ان الجباية في الدولة اجرة الحماية ولذلك تأفف ابو العلاء المعري في النصف الاول من المئة الخامسة من ملوك عصره فقال:

وارى ملوكاً لا تحوط رعية فعلام تؤخذ جزية ومكوس

وقال: عجم وعرب دائلون وكلنا في الظلم اهل تشابه وجناس

وقال: ارى امراء الناس يسون شرهم اذا خطفوا خطف البزاة اللوامع

وفي كل مصر حاكم فموفق وطاغ يحابي في اخس المطامع

وقال ايضاً: يقولون في المصر العدول وانما حقيقة ماقالوا العدول عن الحق

ولست بمختار لقومي كونهم قضاة ولا وضع الشهادة في رق

وقال: بكل ارض امير سوء يضرب للناس شر سكة

وقال: ان العراق وان الشام مذ زمن صفوان ما بها للملك سلطان

ساس الانام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان

من ليس يحفل خمص الناس كلهم ان بات يشرب خمراً وهو مبطان

وقال: وجدت غنائم الاسلام نهباً لا صحاب المعازف والملاهي

وقال: مل المقام فكم اعاشر امة امرت بغير صلاحها امراؤها

ظلموا الرعية واستباحوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

ومن قوله: فشأن ملوكهم عزف ونزف واصحاب الامور جباة خرج

وهم زعيمهم إنهاب مال حرام النهب او إحلال فرج

وبعد فقد استقر خراج فلسطين على عهد معاوية على اربعمائة وخمسين الف دينار واستقر خراج الاردن على مائة وثمانين الف دينار وخراج دمشق على اربعمائة الف وخمسين الف دينار وخراج جند حمص على ثلثمائة وخمسين الف دينار وخراج قنسرين والعواصم على اربعمائة الف وخمسين الف دينار وفعل معاوية بالشام والجزيرة واليمن مثل ما فعل بالعراق من استصفاء ما كان للملوك من الضياع وتصييرها لنفسه خالصة واقطعها اهل بيته وخاصته وهو اول من كانت له الصوافي في جميع البلاد.

قال البلاذري [1] كانت وظيفة الاردن التي اقطعها معاوية مائة الف وثمانين الف

(١) فتوح البلدان.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

دينار ووظيفة فلسطين ثلثمائة الف وخمسين ألف دينار ووظيفة دمشق اربعمائة الف دينار ووظيفة حمص مع قنسرين والكور التي كانت تدعى بالعواصم ثلثمائة الف دينار ويقال سبعمائة الف دينار . وكان ارتفاع الشام سنة ٢٠٤ هـ وهي اول سنة وجد حسابها في الدواوين بالحضرة لان الدواوين احرقت في الفتنة فتنة الامين على مارواه قدامة — ثلثمائة الف وستين الف دينار ارتفاع قنسرين والعواصم وارتفاع جند حمص مائتي الف وثمانية عشر الف دينار وارتفاع جند دمشق مائة الف وعشرة آلاف دينار وارتفاع جند الاردن مائة الف وتسعة آلاف دينار وارتفاع جند فسطين مائتي الف وتسعة وخمسين الف دينار .

قال اليعقوبي[1] ان خراج دمشق سوى الضياع يبلغ ثلثمائة الف دينار وخراج جند الاردن يبلغ سوى الضياع مائة الف دينار ويبلغ خراج جند فلسطين مع ما صار في الضياع ثلثمائة الف دينار وخراج حمص سوى الضياع ايضاً مائتي الف وعشرين الف دينار . وكان خراج الاردن زمن عبد الملك بن مروان مائة وثمانين الف دينار وكان خراج قنسرين على عهد المأمون اربعمائة الف دينار ومن الزيت الف حمل وخراج دمشق اربعمائة الف دينار وعشرين الف دينار وخراج الاردن سبعة وتسعين الف دينار وخراج فلسطين ثلثمائة الف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثلثمائة الف رطل .

ولما تغلب الموالي من الاتراك وتناثر سلك الخلافة وبقيت الدولة العباسية في الترف وقوي عامل كل جهة على مايليه كثرت النفقات وقلت المجابي بتغلب الولاة على الاطراف قال المقدسي [2] كانت الضرائب ثقيلة على قنسرين والعواصم زمن سيف الدولة بن حمدان فكان خراج هذا الاقليم ثلثمائة الف وستين الف دينار وعلى الاردن مائة الف وسبعون الف دينار وعلى فلسطين مائة الف وتسعة وخمسون الف دينار وعلى دمشق اربعمائة الف ونيف .

وانت ترى ان الجباية في الشام كانت تختلف باختلاف العصور والادوار والتقلبات الجوية ومن الاراضي الخراجية والعشرية التي تدفع العشر لانها مما فتحه المسلمون عنوة قال أبو يوسف كل ارض اقتطعها الامام مما فتحت عنوة ففيها الخراج

(١) تاريخ اليعقوبي (٢) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الا ان يصيرها الامام عشرية والشام في ذلك كمصر والعراق ولانها كلها فتحت عنوة وفي التتارخانية ان السلطان اذا دفع اراضي لا مالك لها وهي التي تسمى الاراضي المملكة الى قوم ليعطوا الخراج جاز وطريق الجواز أحد شيئين اما اقامتهم مقام الملاك في الزراعة واعطاء الخراج او الاجارة بقدر الخراج ويكون المأخوذ منهم خراجاً في حق الامام اجرة في حقهم وقال ابن عابدين ومن هذا القبيل الاراضي المصرية والشامية ويؤخذ من هذا انه لا عشر على المزارعين في بلادنا اذا كانت اراضيهم غير مملوكة لهم لان ما يأخذه منهم نائب السلطان وهو المسمى بالزعيم او التيماري ان كان عشراً فلا شيء عليهم غيره وان كان خراجاً فكذلك.

ولم تكثر الاقطاعات الا في القرون الوسطى قال المقريزي وكانت عادة الخلفاء من بني أمية وبني العباس والفاطميين من لدن امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان تجبى اموال الخراج ثم تفرق من الديوان في الامراء والعمال والاجناد على قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم وكان يقال لذلك في صدر الاسلام العطاء وما زال الامر على ذلك الى ان كانت دولة العجم فغير هـــذا الرسم وفرقت الاراضي اقطاعات على الجند واول من عرف انه فرق الاقطاعات على الجند نظام الملك وزير السلجوقيين وذلك ان مملكته اتسعت فرأى ان يسلم الى كل مقطع قرية او اكثر او اقل على قدر اقطاعه فعمرت البلاد وكثرت الغلات واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع وثمانين وأربعمائة الى اوائل القرن التاسع.

وكانت اقطاعات الشام اقل من اقطاعات مصر في القرن الثامن والتاسع وليس في الشام من يبلغ شأو اكابر الامراء المقدمين بالديار المصرية الا نائب الشام فانه يقاربهم في ذلك ولخاصة الامراء المقدمين انواع من الانعامات ما عدا المقررات من المشاهرات والاكل والعليق والكساوي كالعقار والابنية الضخمة التي ربما انفق على بعضها فوق مائة الف دينار. قال التاج السبكي المتوفى سنة ٧٧١ : ومن قبائح ديوان الجيش الزامهم الفلاحين بالاقطاعات بالفلاحة والفلاح حولا يد لآدمي عليه وهو امير نفسه وقد جرت عادة الشام بان من نزح من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد الى القرية قهراً ويلزم بشد الفلاحة والحال في غير الشام اشد منه فيها وكل ذلك لا يحل اعتماده

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والبلاد تعمر بدون ذلك بل انما تخرب بذلك لانهم يضيقون على الناس .

وماعدا الاراضي التي كان الملوك يوغرونها اي التي يدفع عنها اربابها قدراً من المال مرة واحدة فتعفى من الخراج وما خلا الاقطاعات التي يستأثر بها اصحابها من ارباب الدولة ولا يؤدون عنها خراجاً وعدا ضياع كثيرة تعفى من الضرائب وعدا الصوافي واحدها صافية وهي مايستخلصه السلطان لخاصته او هي الاملاك والاراضي التي جلا عنها اهلها او ماتوا ولا وارث لها ـ ماعدا هذا كان هناك نوع من الاراضي يسمى الجاة اي يلجأ صاحب الارض الى بعض الكبراء فيسجل ضيعته باسمه تعززاً به من عمال الخراج حتى لايجوروا عليه فتصبح الضيعة مع الزمن ملكاً لذاك الكبير .

قال ابن ابي الحديد [1] ان من اهل الخراج من يلجىء بعض ارضه وضياعه الى خاصة الملك وبطانته لاحد امرين اما الامتناع من جور العمال وظلم الولاة وتلك منزلة يظهر بها سوء اثر العمال وضعف الملك واخلاله بما تحت يده واما للدفاع عما يلزمهم من الحق والتيسير له وهذه خلة تفسد بها آداب الرعية وينتقص بها اموال الملك وكان العادلون من الملوك يعاقبون الملتجئين والملجأ اليهم ولكن الناس يلجئون املاكهم عند ارباب الصولة وكم من مرة خربت سورية او صقع كبير من اصقاعها بظلم ظالم من عمالها . ذكروا ان الخليفة الحاكم اعفى ولاية حلب من الخراج سنة ٤٠٧ لانها كانت ضعفت بالفتن المتواصلة . وبالغ الامير حصن الدولة معلى بن حيدرة بن منزو الكتامي الذي ولي دمشق سنة ٤٦١ في المصادرات وارتكاب المظالم فلم يلق اهل البلد من التعجرف والظلم والعسف بعد جيش ابن الصمصامة في ولايته ما لقوه من ظلمه وسوء فعله فخربت اعمال دمشق وجلا عنها أهلها وخلت الاماكن من قاطنيها والغوطة من فلاحيها .

والغالب ان المكوس والضرائب كثرت اواخر حكم العباسيين والعبيديين في الشام فاسقطها صلاح الدين يوسف بن ايوب جملة مثل مكس مكة وعوض اميرها بجلاب غلة تحمل اليه كل سنة وتعيين ضياع موقوفة عليها بالديار المصرية . قال ابن ابي طي : ان الذي اسقطه السلطان صلاح والذي سامح به لعدة سنين آخرها سنة اربع وستين وخمسمائة مبلغه عن نيف الف الف دينار والفي الف اردب سامح

(١) شرح نهج البلاغة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بذلك وابطله من الدواوين واسقطه من المعاملين وكذلك فعل اخوه ابو بكر ابن ايوب فانه ابطل كثيراً من المظالم والمكوس وطهر بلاده من الفواحش والخمور والقمار وكان الحاصل من ذلك بدمشق خصوصاً مائة الف دينار الا ان المكوس عادت فاحدثت . فقد ذكر المؤرخون ان فخر الدين بن عساكر انكر على الملك المعظم تضمين المكوس والخمور فعاقبه بأن انتزع منه المدرسة النقوبة والصلاحية. ولما دخل صلاح الدين دمشق سنة ٥٧٠ ازال المكوس وكانت الولاية في اهلها قد ساءت واسرفت واليد المتعدية قد امتدت الى اموالهم واجتحفت . وكذلك كانت من قبل سيرة نور الدين محمود بن زنكي فانه منع ما كان يؤخذ من دمشق من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها وكان ينهى اصحابه عن اقتناء الاملاك ويقول مهما كانت البلاد لنا فاي حاجة لكم الى الاملاك فان الاقطاعات تغني عنها وان خرجت البلاد من ايدينا فان الاملاك تذهب معها ومتى صارت الاملاك لاصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم املاكهم قال ابو يعلى [1] تجمع قوم من السفهاء العوام وعزموا على التحريض لنور الدين على اعادة ما كان ابطل وسامح به اهل دمشق من رسوم البطيخ وعرصة البقل والاثمار وصانهم من اعنات شرار الضمان وصوالة الاجناد وكردوا لسخف عقولهم الخطاب وضمنوا القيام بعشرة آلاف دينار بيض وكتبوا بذلك حتى أجيبوا الى ما راموا وشرعوا في فرضها على ارباب الاملاك من المقدمين والاعيان والرعايا فما اهتدوا الى صواب ولانجح لهم قصد في خطاب ولاجواب وعسفوا الناس بجهلهم بحيث تألموا واكثروا الضجيج والاستغاثة الى نور الدين فصرف همه الى النظر في هذا الامر فنتجت له السعادة وايثار العدل في الرعية الى اعادة ما كان عليه فامر باعادة الرسوم المعتادة الى ما كانت من اماتتها وتعفية اثر ضمانها واضاف الى ذلك تبرعاً من نفسه ابطال ضمان الهريسة والجبن واللبن ورسم بكتب منشور يقرأ على كافة الناس بابطال هذه الرسوم جميعها وتعفية ذكرها . قال السبكي وقد علم ان المكوس حرام فان ضم الى اخذها الاجحاف في ذلك وتشديد الامر فيه والعقوبة عليه فقد ضم حراماً الى حرام. ومع كثرة احتياج البلاد للمال زمن نور الدين وصلاح الدين للاستعانة به على

(١) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين لشهاب الدين المقدسي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قتال الصليبيين كانت الجباية الى الرفق في الجملة ببلاد الشام فاطلق نور الدين المكوس والضرائب واكتفى بالخراج والجزية . وكان هذان الملكان من ازهد الناس فلم يخلفا في خزائنهما الا التافه وقد خلف الملك العادل ابو بكر بن ايوب اخو الملك الناصر صلاح الدين يوسف في خزائنه ـ وكان يحب ادخار المال ليصرفه حين الحاجة ـ سبعمائة الف دينار وخلف الملك الافضل ستمائة الف الف دينار عيناً ومائة وخمسين اردباً دراهم نقد مصر ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة محابس في كل محبس عشرة مسامير وصندوقين كبيرين فيهما ابر ذهب برسم الجواري والنساء عدا الثياب والطرائف والقطعان والخيل والبغال والرقيق . وهذا ما لا يمكن ان يحوزه ملك صغير الا بالضغط على الرعية ولو قليلاً لاستخراج هذه الاموال والتوقف في صرفها على مصالح الامة وموافقها .

ولم نعثر لدمشق عاصمة البلاد على ارتفاع لها خاصة وقد قال ابن ابي طي :(١) حدثني كريم الدولة ابن شرارة النصراني وكان مستوفي دار حلب يومئذ انه عمل ارتفاع جلسة سنة تسع وستمائة في الايام الظاهرية دون البلاد الخارجة عنها والضياع والاعمال فبلغ ستة آلاف وتسعمائة الف واربعة وثمانين الفاً وخمس مائة درهم . قال ومما احطت به علماً في ايام الملك الناصر ان ارتفاعها على القاعدة في الارتفاع في آخر دولته مع حلوله بدمشق وخلوها منه كان على ما يفصل ثم فصل الارتفاع فكان ستة واربعين صنفاً وسطر المجموع بـ ٧٫٣٠٥٫٠٠٠ درهم . وكانت مسافة ما بين مالك حلب في ايامه وهو الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي من المشرق الى المغرب مسيرة خمسة ايام ومن الجنوب الى الشمال مثل ذلك ومنها ثمانمائة ونيف وعشرون قرية ملك لاهلها ليس للسلطان فيها الا مقاطعات يسيرة ونحو مائتي قرية ونيف مشتركة بين الرعية والسلطان . قال ياقوت الحموي : اوقفني الوزير الصاحب القاضي الاكرم جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم الشيباني القفطي ادام الله تعالى ايامه وختم بالصالحات اعماله وهو يومئذ وزير صاحبها ومدير دواوينها على الجريدة بذلك واسماء القرى واسماء املاكها وهي بعد تقدم برز من خمسة آلاف فارس مزاحمي العلة موسع عليهم قال لي الوزير الاكرم ادام الله تعالى علوه :

(١) تاريخ ابن الشحنة ومعجم ياقوت .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لو لم يقع اسراف في خواص الامراء وجماعة من أعيان المفاريد لقامت بارزاق سبعة آلاف فارس لان فيها من الطواشية المفاريد ما يزيد على ألف فارس يحصل للواحد منهم في العام من عشرة آلاف درهم الى خمسة عشر ألف درهم ويمكن أن يستخدم من خواص الامراء ألف فارس وفي أعمالها احدى وعشرون قلعة يقام بذخائرها وارزاق مستحفظيها خارجاً عن جميع ما ذكرناه وهو جملة أخرى كثيرة ثم يرتفع بعد ذلك كله من فضلات الاقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الجبايات الى قلعتها عنباً وحبوباً ما يقارب في كل يوم عشرة آلاف درهم وقد ارتفع في العام الماضي وهو سنة ٦٢٥ من جهة واحدة وهي دار الزكاة التي تجبى فيها العشور من الافرنج والزكاة من المسلمين وحق البيع سبعمائة ألف درهم وهـــذا مع العدل الكامل والرفق الشامل بحيث لايرى فيها متظلم ولامنهضم ولامهتضم وهذا من بركة العدل وحسن النية اهـ .

ومن هذه النقول تعرف درجة الجباية والثروة في تلك العصور ولمـــا قبض الاتراك والجراكسة على زمام الاحكام في الشام في القرن السابع والثامن والتاسع كانت المكوس كثيرة جداً وزادوها هم وتفننوا في ضروبها حتى صعب احصاؤها وحفظها وكانت الخمور في سنة ٦٤٣ مضمنة والمكوس شديدة وابطل الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ ضمان الحشيشة وامر باحراقها والغالب ان بعض الملوك لم يكونوا يستنكفون من اخذ الضرائب عن الخمور والمكيفات بل تعدوا ذلك في تلك الحقبة من الزمن الى اخذ الرسوم عن البغايا والمواخير فقد ابطل الظاهر برقوق في جملة ما ابطل من المظالم والمكوس في بر الشام ضمانة المغاني اي المغنين والمغنيات في الكرك والشوبك وضمان المغاني كان معروفاً في مصر فأبطل سنة ٧٧٨ زمن الاشرف قلاوون ابطله من جميع أعمال مملكته وكان عبارة عن مال كثير مقرر على المغاني من رجال ونساء يؤدونه كل سنة الى الخزانة وابطل الناصر قلاوون ضمان المغاني ايضاً وهو عبارة عن اخذ مال من النساء البغايا وذلك لو خرجت اجل امرأة تقصد البغاء ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة واقامت بما يلزمها من القدر المعين عليها لما قدر اكبر من في مصر ان يمنعها عن البغاء وعمل الفاحشة وكان يتحصل من ذلك جملة كثيرة من المال .

لا جرم ان دولة الترك والجراكسة في مصر والشام تشبه في كثير من الوجوه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

دولة الترك العثمانيين التي جاءت بعدها وكانت مراسيم ملوكها تصدر الحين بعد الآخر بابطال بعض الرسوم والضرائب ولكن مع هذا تجد من الامراء من كانوا يصادرون على ملايين من الدنانير دع سائر اسباب الثروة من ناطق وصامت . والدولة التي تخفف عن رعاياها بالاقوال والافعال على خلاف ذلك هي دولة سيئة ادارتها المالية فقد كان الملك المؤيد شيخ كثير المصادرات للرعية وهو الذي قطع دابر النواب العصاة الذين اخربوا غالب البلاد الشامية واحدث في أيامه اشياء كثيرة من ابواب المظالم لما كان يخرج الى التجاريد . والخروج الى التجاريد او الحملات كان من جملة الاسباب التي تتهيأ لملوك الجراكسة ليسلبوا الناس أموالهم ولا تكلفه التجريدة اقل من نصف مليون دينار فاذا جرد السلطان في حياته عشرين تجريدة كان المصروف من ذلك في هذا السبيل عشرة ملايين لا تصل الى خزانة السلطان حتى يجبى مثلها من الرعايا المساكين .

ومن جملة ما ابطلوه في ادوار مختلفة من الرسوم وهو ما نورده مثالاً من حالة تلك الايام ما ابطله برقوق مما كان متقرراً على البرداربة في كل شهر من المال وما كان يأخذه السماسرة على الغلال والكيالة وعن الملح في عين تاب وعلى الدقيق بالبيرة وما كان مقرراً لنائب طرابلس عندما يتولى على كل قاض من قضاة البر والولاة بغلة او ثمنها خمسمائة درهم . وابطل المنصور قلاوون من جملة ما ابطل من المظالم وظيفة ناظر الزكاة وهو ان يؤخذ ممن عنده مال زكاته فان مات الرجل صاحب المال او عدم ماله يبقى ذلك القدر المقرر عليه في الدفاتر يؤخذ من اولاده او من ورثته او من اقاربه ولو بقي منهم واحد . وابطل الاشرف صلاح الدين ما كان يؤخذ على كل حمل يدخل باب الجابية بدمشق من القمح خمسة دراهم من المكس بل ابطل المكوس والضرائب عن سائر اصناف الغلة بجميع الشام وكان ذلك جملة تخرج عن الاحصاء . وتجد الى اليوم على السواري الاربع القائمة في مدخل جامع بني أمية بدمشق من الغرب اربع وثائق في ابطال المكوس كتبت كل وثيقة على سارية تاريخ الاولى سنة ٨٦٣ على عهد قايتباي الحزاوي كافل الممالك الشامية ابطل بها الرسم المقرر على الاسواق والطواحين وغيرها من المكوس بدمشق . والثانية كتبت سنة ٨١٥ وهي مما امر به الظاهر ابو سعيد بن جقمق بابطال المكوس على الاقمشة الحمصية وفرع الاردية وفرع القطن وغيرها والثالثة بتاريخ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

سنة ٨٥٢ تقول بانه ورد مرسوم شريف من مولانا السلطان الملك الظاهر ابو سعيد جقمق بابطال بعض المكوس ومنها التمر والعفص والسمك البوري والحنا والقماش المصري . قال وهذا في صحائف الدولة العادلة ا والرابعة فيها ذكر القلي والخروع والقلقاس وجلود الجواميس والماعز .

وكانت العادة ان تنقش على الرخام صورة الامر الصادر من الملك في رفع مثل هذه المظالم فنقش الملك الظاهر ابو سعيد ططر رخامة والصقها على باب الجامع الاموي في هذه المدينة بابطال ما كان لنائب الشام على المحتسب في كل سنة وكذلك ابطل في القدس ما كان يجبى لنائب القدس في كل سنة من المال ونقش ذلك على رخامة والصقها بباب الجامع الاقصى وابطل ايضاً ما كان مقرراً على أمير مكة واعيان التجار من التقادم للامراء اذا حجوا واعيان الدولة وفي سنة ٧٤٦ كتب على باب قلعة حلب وغيرها من القلاع فقرأ في الحجر ما مضمونه : مسامحة الجند بما كان يؤخذ منهم لبيت المال بعد وفاة الجندي وذلك احد عشر يوماً وبعض يوم في كل سنة وهذه مسامحة بمال عظيم وكتب بالمسامحة بمثل ذلك على حائط قلعة طرابلس وهـــذا التفاوت ايام الدوران ما بين السنين الشمسية والقمرية[1] وكثيراً ما كان يصدر الامر في زمن الجراكسة بجمع الذهب اذا قل او الفضة وتسليمها الى الملك ليضرب بها سكة ونقوداً وكثر في ايامهم غش الفضة حتى كان سعر الدرهم ينزل كثيراً ويصاب الناس في الشام ومصر بخسائر فادحة وكثيراً ما كانوا يخسرون ثلث اموالهم لان بعض ملوكهم كانوا يغشون الفضة وينزلون عيار الذهب فكانت المصيبة بالفضة والذهب لعهدهم كالمصيبة بالاوراق النقدية لعهدنا كل يوم في ارتفاع وانخفاض. ولاعجب فقد كانت الدول بعد عصر صلاح الدين وآله في هذه الديار تتخبط بدون قاعدة مستقرة والدول التي ينصب لها ملك وهو لم يبلغ الحولين ويتولى المماليك امره لا يصدر منها اكثر من هذا كما وقع في سلطنة الملك المظفر ابي السعادات احمد بن الملك المظفر فاركبوه فرس النوبة وهو ابن سنة وثمانية اشهر وسبعة ايام وهو يزعق من البكاء ومشت قدامه الامراء حتى دخل القصر الكبير وهو في حجر المرضعة وقبلوا الارض امامه ولما دقت الكوسات بهت الطفل وصار احول العين . للكلام صلة

(١) تاريخ ابن الوردي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net